**الاسم والمسمّى**

**بقلم: جلال المخ**

 **عاد الأديب والشاعر سوف عبيد إلى عالم النشر بقوّة بداية من سنة 2017 التي أصدر فيها مجمل أعماله الشعرية في مجلّد بعنوان "ديوان سوف عبيد" ونشر سنة 2019 كتاب "الضفّة الثالثة قبسات من الشعر التونسي والعربي" وها هو يصدر سنة 2020 كتابا آخر عنوانه "الاسم والمسمّى، شذرات من ذكريات".**

 **وهذا العنوان يبعث على التساؤل، فما أو من هو المقصود بالاسم والمسمّى إذ أن كلّ اسم يدلّ على مسمّى وكلّ مسمّى يحمل ٱسما؟ وهل المسمّى هو الشاعر ذاته من خلال تجسيد الاسم له أم هو كلّ الشخصيات التي حواها الكتاب والتي لها أسماء تدلّ عليها كذلك؟**

 **في خضمّ هذه التّساؤلات نقتحم قراءة الأثر لتطالعنا في أوّل الأمر قصيدة يُبْتَدأُ بها الكتاب وفي هذا مخاتلة يُسبّبها العنوان الفرعي "شذرات من ذكريات" الّذي لا يدلّ على أنّ افتتاح العمل قد يكون شعريّا. ولا يربكنا هذا القصيد الأوّل فحسب لأنّ القصائد تتالى في هذا الكتاب لتقارب الخمسة والعشرين قصيدا بعضها نثري وبعضها عمودي ومواضيعها وأغراضها مختلفة تتنقّل بنا من التأمّلات الفلسفيّة والوجودية إلى التّأريخ لبعض الأحداث وإلى رسم بعض البورتريهات لتشمل كذلك بعض الإخوانيات والشعر المناسباتي.**

 **إن عدد هذه القصائد كان يمكن بيسر أن يكوّن مجموعة شعرية أخرى للشاعر سوف عبيد ذي الثلاث عشرة مجموعة شعريّة أو تزيد، لكنّ المؤلّف لم يرد لها ذلك المصير بل أقحمها ضمن عدّة أجناس كتابيّة أخرى تحوم حول السيرة الذاتية بالخصوص إلى جانب المذكّرات والخواطر والشهادات بل والمقالات كذلك.**

 **إن هذا التداخل الأجناسي الذي لا يحدث نشازا ولا نفورا في الكتاب على تعدّده، إصرار من سوف عبيد على الكتابة في أجناس مختلفة ودليل على أنّه أديب متمكّن من الكتابة الأدبية شعرا وسردا ونقدا وهو يترجم موقفا كاملا من الكتابة عبّر عنه في إبداء رأيه في قضية كتابة الشعر النثري والعمودي في آن، فهو منفتح على الكتابة الشعرية بمختلف أنماطها، بل إن الشعر ذاته يمكن أن يتآلف مع أجناس كتابية أخرى ليكسر بذلك الحواجز والحدود بين أشكال التعبير بل نراه يجمع بين الكتابة والفن التشكيلي في أحد أعماله السّالفة في كتاب سابق عنوانه "ألوان على كلمات". وانفتاحه هذا جعله يقدم على نشر دواوينه كذلك لا ورقيّا بل الكترونيا ونقصد بذلك مجموعة "حارق البحر" المنشورة على شبكة الأنترنيت عن طريق دار نشر إلكترونية سنة 2008.**

 **وهذه القصائد في هذا الكتاب قد تؤلّف وحدة مستقلّة بذاتها وقد تنصهر في السّياق العام للنص لتدخل في مراوحات لطيفة بين فقرات سردية، فنجد أنفسنا أمام نصوص نثرية تروي حكاية أو خبرا تَعقبها مقاطع شعرية تساهم في تقدّم الأحداث وانسيابها، ويعتمد هذه الطريقة أي فقرة نصيّة ثم قصيد أو مقطع شعري في عشرات الصّفحات من هذا المؤلّف بإصرار يدلّ على اقتدار أدبي لدى الكاتب وتمكّن من وسائل الكتابة بأنواعها، لكن هذا لا يمنع وجود قصائد مطوّلة جدّا تفوق الخمس عشره صفحة تدلّ على ضلوعه المعهود في الكتابة الشعريّة كتلك التي نظمها في رسم شخصيّة الشاعر الكبير الميداني بن صالح ومكوّنات شخصيته وخصائص كتابته وعلاقته الحميمة بالشاعر سوف عبيد.**

 **ولنعد إلى موضوع الاسم والمسمّى لنجد تجسيدا له في الفصل الأوّل من الكتاب الذي يمسح ربعه تقريبا وفيه بحث عن أصول اسم "سوف" ومعانيه بالعربية وبالإيمازيغيّة واستعراض لمختلف المدن التي تحمل هذا الاسم ولعدد من الطّرائف وقعت للشاعر في عدّة مناسبات بسبب هذا الاسم لا نريد ذكرها حتّى لا تفسد على القارئ لذّة مطالعتها واكتشافها من خلال قلم الكاتب الذي يكتب بأسلوب فيه كثير من البساطة والتشويق وخفّة الرّوح التي تجعلك تنتقل من فقرة إلى أخرى أو من سرد إلى شعر وشعر إلى سرد بطريقة تجتذبك بلطف وتشدّك إلى النصّ شدّا عجيبا.**

 **ولا يفوته أن يتحدّث عن ظروف ٱختيار هذا الاسم وقرار إطلاقه عليه. ويصاحبُ الحديثُ عن الاسم كلاما عن المسمّى أي الشاعر الذي تقمّص شخصيّة السّارد وانطلق يروي لنا الأحداث التي عاشها ذلك المسمّى في طفولته الأولى مرورا بمراهقته وشبابه الأوّل ويصف لنا طريقة عيش أجداده وآبائه في البادية وتعلّقهم بالأرض وبقيم العمل والشرف وحبّ الحياة بكلّ بساطة ونقاوة سريرة. وقد ٱختار أن يروي الأحداث بضمير المتكلّم المفرد كما فعل ميخائيل نعيمة في كتابة سيرته الذاتية "سبعون" وكما لم يفعل طه حسين في كتابه "الأيام" لمّا فضّل استخدام ضمير المفرد الغائب يتولّى السّرد ويستعرض الأحداث.**

 **أمّا فصول الكتاب الأخرى فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة تجسّد بأكثر وضوحا العنوان الفرعي "شذرات من ذكريات" وتبرّره بمنطق جليّ لأنّه مجموعة من الذكريات بتداخل فيها كالعادة النثر والشعر وتتعلّق بمسميّات لمعت أسماء أصحابها في عالم الإبداع والأدب والثقافة في تونس ويُعتبَرُ مرورها به محطّات فارقة طبعته بسمات مميّزة وأثرت فيه تأثيرا دائما وضّح أبعاده وأهدافه وحدّد معالمه ومفاهيمه.**

 **ويمكن ٱعتبار ٱثنين منهما موضوعي الفصلين المواليين في الكتاب لأهميّة هاتين الشخصيتين وبروزهما في دنيا الأدب والثقافة واتسامهما بدور الرّائدين والمؤسسين زيادة إلى كونهما مثقفين عضويين آمنا بجدوى العمل الثقافي والجمعياتي ودورهما في تغيير المجتمعات وتطويرها والتقدّم بها نحو الأفضل. ولم يكتفيا بعمليّة الكتابة الإبداعية رغم أنّهما يعتبران من أكبر الأدباء الذين عرفتهم البلاد التونسيّة.**

 **الشخصيّة الأولى التي يهتمّ بها الفصل الثاني تتعلّق بالأستاذ محمد العروسي المطوي (1920-2009) أو "سي العروسي" كما يحلو لسوف تسميته حاضرا أو غائبا تقديرا وإجلالا لقيمته الإنسانية ومكانته الأدبية، فقد كان رئيس اتحاد الكتاب التونسيين ورئيس اتحاد الكتاب العرب وشغل عدّة مناصب ديبلوماسية وتخرّج من الكليّة الزيتونية ودرّس التاريخ والأدب وكتب وحقق المؤلّفات التاريخيّة زيادة إلى تمرّسه بالأدب بكلّ أنواعه إذ نظم الشعر وكتب القصّة والرواية وأدب الطّفل واشتغل بالبحث والنقد واشتهر بالخطابة وطَرَق كلّ أنواع الأنشطة والمسؤوليات الثقافية.**

 **إن الأستاذ محمد العروسي المطوي علم في رأسه نار وإنجازاته ومؤلفاته الكثيرة المتنوعة معروفة ومحفوظة ومنتشرة تربّت على محتوياتها أجيال كاملة لذلك لم يعمد سوف عبيد إلى التعريف به وإلى استعراض معلومات يعرفها الجميع بل جنح إلى تصوير العلاقة الشخصية التي كانت تربطه بذلك العلاّمة والحادثات التي وقعت له معه وما دار بينهما من أحاديث خاصّة ومن طرائف أو مواقف غير معروفة سمحت له بها الظروف الحسنة التي جعلته يلازمه في كثير من جلساته وأسفاره منذ نعومة أظفاره لتكون تلك التسجيلات التي علقت بذهنه إضاءات فعلية وإضافات حقيقية تزيدنا فهما وإدراكا لشخصية الرّجل ولمواقفه التي طابعها المعرفة والتواضع والإنسانية.**

 **ونشعر من خلال حديث الكاتب عن هذا الاسم الكبير والمسمّى الجليل بكثير من الاحترام والتقدير له وبشيء من الافتخار الذي جعله حسن طالعه يجنيه من تلك الملازمة لذلك كان في كتابته كثيرٌ من المتعة تنتقل إلى القارئ بيسر لأنها تتميّز بالصّدق والمحبّة.**

 **وبما أنّ سنة 2020 تصادف مائوية الأديب الكبير الذي احتفت به العديد من الجهات الثقافية فقد احتفل اتحاد الكتاب التونسيين بذكرى رئيسه الأسبق وأحد مؤسسيه وشارك سوف في هذا المحفل بمادّة هذا الفصل التي نشرها لاحقا في مجلّة "المسار" النّاطقة بلسان اتحاد الكتاب التّونسيين.**

 **ويعقب هذا العلم مباشرة علم آخر مثّل ٱسمه علامة في تاريخ الشعر التونسي الحديث وأورده الشاعر لاستعراض صفات هذا المسمّى وإظهار أهميته والإلحاح على الجوانب الإبداعية في الشاعر والجوانب الإنسانية في الرّجل، ونعني به الأستاذ الشاعر الميداني بن صالح رئيس اتحاد الكتاب التّونسيين كذلك وصاحب ٱثني عشر عملا شعريّا بوّأته تلك المكانة الخاصّة بين شعراء تونس. وقد أراد سوف عبيد مرّة أخرى أن يفاجئنا بما لا ننتظر أو يخاتلنا فكان الفصل بأكمله قصيدة شعريّة مطوّلة تنتمي إلى قصائد النثر ويبلغ طولها مائة وٱثنين وتسعين سطرا بالتمام والكمال لتكون تقريبا أطول قصائد الشاعر ومعلّقة شعريّة حديثة ونثريّة. وقد صدّرها بهذا الإهداء: "إلى الشاعر الميداني بن صالح استلهاما من مسيرته بمناسبة بلوغه السبعين من عمره وجعل لها عنوانا: "القرط القديم" إشارة إلى ديوان "قرط أمّي" الذي شكّل صدوره منعرجا حاسما في تطوّر الشعر التونسي في القرن العشرين شكلا ومضمونا. وما كان باستطاعة سوف أن يكتب مثل هذا القصيد شبه الملحمي ويتوسّع فيه كلّ ذلك التوسّع لو لم يكن يكنّ لزميله الكبير ودّا وإعجابا ولو لم يكن يعرفه جيّدا بحكم ملازمته له ومصاحبته ومشاركته نفس الرؤية في عدّة قضايا ومشكلات.**

 **وهكذا خصّ المؤلّف علمين كبيرين وأديبين هامّين ورئيسي اتحاد الكتّاب بفصلين في هذا الكتاب جاء الفصل الأوّل نثريّا وكتبت كلّ أقسامه بعد وفاة المحتفى به بينما جاء الفصل الموالي شعريا وكتبت سطوره المائتان في حياة المحتفى به بمناسبة عيد ميلاده.**

 **أمّا ما اعتبرناه فصلا رابعا فيشمل باقي الكتاب ويتمثل في مجموعة من الذكريات والأحداث عاشها المؤلّف مع عدد من رجال الثقافة والأدب مثل مصطفى الفيلالي ومحمّد البقلوطي ومحمّد الغزالي إلى جانب بعض القصائد المناسبتيّة موجّهة إلى الأديب عبد المجيد يوسف والشاعر عبد الحكيم زريّر ومجموعة من القصائد الإخوانية تبودلت بينه وبين الشاعر الكبير نور الدين صمّود جاءت في شكل ملاطفات. ويخترق الحديث عن هذه الأسماء والمسمّيات بعض القصائد ذات المواضيع المختلفة وحديث عن رحلات قام بها المؤلّف إلى باريس والجزائر وسوريا والعراق فيصف بعض معالمها وجوامعها وخاصّة مقاهيها، ويبرز دور المقهى في حياته وفي احتضان الأدباء والمبدعين وأنشطتهم ليضيف إلى التداخل الأجناسي في هذا الكتاب جنسا آخر هو أدب الرّحلة.**

 **إنّ سوف عبيد متمرّس بالكتابة خبر أسرارها وأغوارها كما خبر الحياة وحلب من الدّهر أشطره وأنفق أكثر من خمسة عقود يعبّر عن شغفه بالكتابة والكتّاب والمثقفين ويخالطهم ويلازمهم ويتباحث معهم في شؤون الأدب والفنّ. وقد جاء هذا الكتاب ليكون مرآة تعكس هذا الشغف وهذا الإمتاع وتعكس ولعه بشتّى أجناس الكتابة وتقنياتها. وقد ٱستخدم في تأليفه عدّة ملكات مثل الذّاكرة والعاطفة والمخيّلة وعددّ فيه الأسماء والمسميّات ليبرز من وراء كلّ ذلك مسمّى كبير هو خلاصة كل هذه الحياة وهو الإبداع عموما والشعر خصوصا. وقد كتبه المؤلّف ولسان حاله يقول متمثّلا بالشاعر العربيّ القديم:**

**أثن على الشعر بآلائه وسمّه بأحســـــــــن أسمائه**

 **حمام الأنف**

 **17 جويلية 2020**